المحاضرة الخامسة : مالك بن نبي - طلبة الماستر1 – مقياس فكر جزائري

الجزء الثاني – فلسفة ابن نبي - المحاضرة 1 شهر ماي2020-

نموذج من كتابات ابن نبي الفلسفية

السند : من كتاب مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ترجمة: الدكتور بس

ام بركة و الدكتور أحمد شعبو ، إشراف وتقديم المحامي عمر مسقاوي ،

دار الفكر المعاصر- بيروت لبنان ، دار الفكر-دمشق سورية ، 1423هـ = 2002ممن ص : 17 الى .....

إشكالية النص : يتناول الفيلسوف الجزائري مالك بن نبي في هذا النص المقارنة والتمييز بين ثقافتين : الإسلامية والغربية ، الأولى ثقافة حضارةٍ ذات جذور أخلاقية وغَيْبيَّة وميدانها هو آفاق الأفكار والثانية ثقافةُ سيطرةٍ ذات جذور تقنية. مسرحها الأشياء والإستهلاك المادي .

**النص :**

الإجابتان عن الفراغ الكوني

- موقف الإنسان في عزلته: ماديّ  (الثقافة الغربية) أو فكريّ  (الثقافة الإسلاميّة)

إذ يعتزل الإنسان وحيداً، ينتابه شعورٌ بالفراغ الكوني، لكنَّ طريقته في مَلْء هذا الفراغ؛ هي التي تحدِّد طُرُزَ ثقافته وحضارته؛ أي سائر الخصائص الداخلية منها والخارجية لوظيفته التاريخية.

تعليق الأستاذ : يشير الفيلسوف بن نبي الى أن حياة الإنسان تنصبغ في كل مناحيها بما يحمله من أفكر وتصورات وهو في هذا النص سيقوم بمقارنة بين ثقافتين أولاهما الثقافة الإسلامية التي مصدرها الوحي الإلهي – القرآن – وثانيهما هي الثقافة الغربية

هناك أساساً طريقتان لملء الفراغ. فإما أنْ ينظر المرء حول قدميه، أي نحو الأرض. وإما أنْ يرفع بصرَه نحو السماء. فالطريقةُ الأولى تملأ وحدَته بالأشياء حيث يَجْمَح بَصَرُه المتسلِّط لامتلاكها. والطريقة الثانية تملأ وحدته بالأفكار ويبحث عن الحقيقة بنظره المتسائل.

هكذا ينشأ عبر الطريقتين نموذجان من الثقافة: ثقافةُ سيطرةٍ ذات جذور تقنية. وثقافة حضارةٍ ذات جذور أخلاقية وغَيْبيَّة.

فالظاهرة الدينية تبدو حين يُوَجِّه الإنسان بصرَه نحوَ السماء. هنا يظهرُ الرسول: صاحب الدعوة والرسالة، أيْ ذلك الإنسان الذي يملك أفكار اً يريد تبليغها إلى الناس مثل أرمية، وعيسى، ومحمد - صلى الله عليه وسلم -.

فأوروبة، مهدُ عديد من الرجال العظماء، تبدو مع ذلك خارج الظاهرة الدينية في مستوى تلك الرسالات، كما لو أن طبيعة الأوربي الممتلئة بآدميّته لا تدع مجالاً للألوهيَّة.

بالمقابل فإنّ الرجل الساميَّ يبدو مُهَيَّئاً للفكرة الغيبية؛ بحيث لم تدع الألوهيَّةُ في ذاته غير قليل من المشاغل الأرضيَّة.

تعليق الأستاذ : دفع شبهة :

يبدو من القراءة الأولى والسطحية لهذه الأسطر – كما كتب ابن نبي – أن الدين يغيب الواقع ويشل مسيرة تنمية الإنسان . وأنه فكر أخروي – من الآخرة – محض ولا يقيم للدنيا وزنا .وهذا خطأ ويرده من نصوص الوحي الكثير من ذلك : قوله تعالى (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ واستعمركم فيها ) سورة هود 61 .وجاء في تفسير القرطبي عن زيد بن أسلم أن معناها " أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناء مساكن ، وغرس أشجار . وقيل : المعنى ألهمكم عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها . " وفي تفسير السعدي " أي: استخلفكم فيها، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، ومكنكم في الأرض، تبنون، وتغرسون، وتزرعون، وتحرثون ما شئتم، وتنتفعون بمنافعها، وتستغلون مصالحها،"

وفي السنة : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : (لاَ يَغْرِسُ مُسْلِمٌ غَرْسًا وَلاَ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ وَلاَ دَابَّةٌوَلاَشيءإِلاَّكَانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ) رواه مسلم .

ويأْتي في منتصف الطريق بين الساميَّة والآريَّة الشماليَّة، اليونان الذي يشغل

عالَمه بالأشكال ويملأ وحدته بمشاعر الجمال حتى إنه ليسميه (الخير) كما لاحظ تولستوي [[1]](#footnote-1) في تأملاته العميقة حول الفن .

بالإجمال فإن أوربة رَكَّبت في مضمون ثقافتها مزيجاً من الأشياء والأشكال من التقنيّة والجماليَّة. بينما الشرقُ الإسلاميُّ رَكَّب في ثقافته مزيجاً من فكرتين الحقيقةِ والخيرِ.

هذه الخطَّة لا تتوافق مع مرحلة معينة من التاريخ فحسب، بل مع سائر مراحله التي فيها يتداول كرقاص الساعة في دقاته المزدوجة، صعودُ الحضارة العالميَّة إلى القمة وهبوطها إلى الحضيض.

فحيناً تكون القمة لثقافة من تلك الثقافتين والحضيض للأخرى، وحيناً يكون العكس، وبينهما في المراحل الوسيطة نسجِّل فتراتِ إخصابٍ متبادل يَكتنفها لحظات اختلاط في البابليَّات [[2]](#footnote-2) التاريخية كما هو عصر بابل القرن العشرين

تلكم هي الحضارة في أحيانها وتقلباتها: تكون في الأوج حضارةً تتركز فيها الأشياء حول فكرة حيناً، وحيناً تبلغ الأوج حضارةً أخرى تتركز فيها الأفكار حول الشيء.

وتبدو هذه الظاهرة بجلاء عندما يعبر الفكر عن نفسه بحرية كاملة، وتِلْقائيَّة تامة، دون مواربة أو سراديب بلاغية، وبتواصلٍ مباشر مع جذور الثقافة.

والأدب الشعبي كاشف في هذا المجال. بل الأدب في عمومه حتى المتَكلَّفُ منه يحمل مع ذلك تلك الخاصيَّة الشعبيَّة في طبيعة موضوعه.

وليس كالقصة تُجَلِّي عُمْقَ تلك الجذور.ويمكن لتوضيح ما أسلفنا أن نأخذ نموذجاً: قصتين: الأولى (روبنسون كروزو) والأخرى)   حي بن يقظان (.

فبطلا القصتين المنعزلان؛ هما في الحقيقة المثلان اللذان يُعبِّران بوضوح عن نَمَطَي الثقافة. فالأولى ينطلق بها دانيال دي فوي [[3]](#footnote-3) من محوٍ كاملٍ للوسائل (أي الأشياء) حينما يبدأ بطلُ قصته المغامرة . والثانية ينطلق بها ابن طفيل من محوٍ كاملٍ للأفكار، حينما يتدرج في مراحل أحداثها.

ففي كلا القصتين تكمن العبقرية في الطريقة التي ملأ بها مؤلفاهما وقت عزلة بطليهما.

وهاكم طريقة استخدام الزمن ليومٍ واحدٍ، في حياة (روبنسون كروزو) على الجزيرة التي نجا بنفسه إليها بعد غرق سفينته:

**(**بدأت أُنظِّم وقت عملي وخروجي، وقت راحتي ونُزهاتي، وانطلاقاً من هذه القاعدة التي واظبت على مراعاتها، كنت أخرج في الصباح إذا لم يكن الطقس ممطراً، ومعي بندقيتي لمدة ساعتين أو ثلاث، ثم أعمل بعد ذلك إلى ما يقارب الساعة الحادية عشرة، ثم آكل ما كنت أستطيع الحصول عليه، وكنت أنام من الظهر حتى الساعة الثانية بسبب الحرّ المضني. وفي المساء كنت أستأنف العمل. لقد أنفقت وقتي كلَّه في ذلك اليوم، وفي اليوم التالي في صنع طاولةٍ لنفسي، ذلك أنني لم أكن آنذاك سوى عاملٍ بائسٍ، ولكن الزمن والحاجة جعلاني فيما بعد صانعاً ممتازاً)

تلك شريحة من زمن (روبنسون كروزو) في عزلته في الجزيرة. فالوقت يجري منذ البداية في وقائع محسوسة. أكْل- نوْم- عَمَل. وهي وقائع تكمن في طبيعة خاصة، تضع ثواني الزمن في خدمة اقتصادٍ شخصيٍّ نفعيٍّ بحْت.

فروبنسون كروزو يتغلّب على كآبة الوحدة بالعمل. وخلال هذا الوقت من ذلك اليوم فإنّ عالمَ أفكاره كلَّه يتركز حول (شيء): إنّها الطاولة التي كان يريد صنعها لنفسه.

أما بالنسبة لحي بن يقظان فإنّ مغامرة الوحدة تتخذ لها اتجاهاً مختلفاً تماماً. فهي لا تبدأ في الواقع إلا بعد أن نَفَقَتِ الغزالةُ التي تَبَنَّت الطفلَ المنعزل كأمّ ترعاه: (فكان يرتاد بها المراعي الخصبة، ويجتني لها الثمرات الحلوة، ويطعمها. وما زال الهزال والضعف يستولي عليها ويتوالى، إلى أن أدركها الموت، فسكنت حركاتها بالجملة، وتعطلت جميع أفعالها، فلما رآها الصبيُّ على تلك الحالة، جزع جزعاً شديداً، وكادت نفسه تفيض أسفاً عليها. [ ... ] فكان ينظر إلى أذنيها وإلى عينيها فلا يرى بها آفة ظاهرة، وكذلك كان ينظر إلى جميع أعضائها فلا يرى بشيءٍ منها آفة. فكان يطمع أن يعثر على موضع الآفة فيزيلها عنها، فترجع إلى ما كانت عليه فلم يتأتَّ له شيء من ذلك ولا استطاعة ) [[4]](#footnote-4).

لم يعثر حي بن يقظان على موطن الداء: لكن ابن طفيل يجعلنا نتتبع صعود ذهنه كيما يكتشف شيئاً فشيئاً (الروح) ثم (خلود الروح)  وأخيراً  (فكرة خالق.) .

منذ تلك اللحظة تتتابع المغامرة تأملاً يسمح لابن يقظان أن يَدْلُفَ بعد عدة محاولات فاشلة إلى إدراك النظام الإلهي؛ إلى رؤيةٍ داخليةٍ للإله، وإلى مفهومِ صفاته.......

تعليق الأستاذ : من المعلوم أن طريق إثبات العقائد في الفكر الإسلامي هو واحد وهو الوحي ومن المسلم به أيضا عند علماء الأصول والعقائد في الإسلام أن التفكير العقلي الصحيح لن يصادم الوحي أبدا. لأن مهندس الكون كما يقول انشطاين هو واحد وهو الله وهو منبع الوحي وملهم وهو ايضا مفلهم الأفكار الفطرية في العقل الإنساني . ولكن دور العقل في قصة حيي بن يقظان هو دور منشئ ومخترع للعقائد كما فعل اليونان حينما نحتوا آلهتهم الثلاثة عشر( أبولو – آثينا- أرتميس – آريس – أفروديت – بوسايدون – ديونيسيوس – ديميتر – هيدس – هيرا – هيرميس – هيستيا – هيفيستوس – زيوس – نيبتون – كريتوس ) .وهذا خطأ. بل الوحي هو المثبث والمنشئ ثم العقل بعد ذلك يصادق و يؤكد ويبرهن. والخلاصة التي أرادها مالك بن نبي في هذا المقال أن المنهج الإسلامي يملك عقلا متسامي عن العقل الغربي الذي فصل الحياة عن الدين .فهو عقل منفصل تقني براقماتي مسيطر ومستهلك ودنيوي لاحرج عنده أن يرمي بأطنان القمح والسمك في البحار لكي يحافظ على السعر المرتفع .أما العقل الإسلامي فهو عقل جامع ومتصل ومنتج ودنيوي وأخروي ومتدين وعصري وأصيل .

1. - (ليون نيقولايفيتش تولستوي) روائيّ وكاتب مسرحي روسيّ. وُلد في روسيا سنة 1828 وتوفي فيها سنة 1910. قدَّم العديد من المؤلفات؛ أهمها الروايتان: (الحرب والسلم)، و (آنا كارنين). وله (ما الفن؟) الذي نشره سنة (1897)، وهو عبارة عن مجموعة من التأملات حول الفن، يعارض الكاتب فيها فكرة (الفن للفن)؛ التي تقول بأنه لا هدف للفن ولا تعليل لوجوده سوى الفن ذاته. ويبدو أن مالك بن نبي يشير هنا إلى هذا الكتاب. [↑](#footnote-ref-1)
2. - (1) بابل مدينة قديمة جداً (القرن الثالث والعشرون قبل الميلاد) قامت في بلاد ما بين النهرين (على بعد 160كم من موقع بغداد الحالي). يحكى أن أهلها بنوا فيها برجاً عظيماً أرادوا بواسطته أن يبلغوا السماء. فغضب الله عليهم وبذر الشقاق بينهم بإدخال تعدُّديَّة الألسن. فتخاصموا وتفرّقوا في البلاد وفشلوا في بناء البرج. وتستعمل عبارة (برج بابل) للدلالة على الفوضى والغموض والضياع التي تصيب قوماً من الأقوام. [↑](#footnote-ref-2)
3. - (دانيال ديفر Daniel de Foe) روائي وشاعر وصحفي بريطاني. وُلد في لندن سنة (1660). وتوفي سنة (1731). له عديد من الروايات أهمها (ربنسون كروزو) حيث يخطّ البطل ذكرياته في وحدته على جزيرة نائية نجا إليها بعد غرق سفينته. وهو يُعَدُّ رمزاً للنجاة بالعمل، ومثالاً لصراع الإنسان ضدّ الوحدة، والعزلة**.** [↑](#footnote-ref-3)
4. - ابن طفيل: حيّ بن يقظان، 132 - 133، دار الآفاق الجديدة، بيروت ط 3/ 1980 [↑](#footnote-ref-4)